عقوق المثقفين للقرآن

طالعتُ نتاج غالب المثقفين العرب، فوجدت الكثير منهم مولعًا بثقافة غير المسلمين تهوله الأسماء الغربيّة، ويكاد ينخلع قلبه إذا ذُكر شكسبير وفولتير أو برنارد شو، وديكارت وكانط وغوته وغيرهم وأصبح يرى أن من التميّز على الأقران والظرف والكياسة البعد عن مصطلحات الدين وعدم الاستشهاد بكلام رب العالمين، لئلا يوصف بالرجعية والتخلف والجمود والتقليد والتأخر وعدم التطور والمعاصرة، وهذا لعمري نهاية السقوط ومنتهى الرذالة، وغاية النذالة، وقل لي بربك: من أضل ممن هجر الحق المنزّل من الله على نبيه ومصطفاه محمد بن عبدالله ﷺ النبي المعصوم واتبع الصادِّين عن منهج الله المعرضين عن الصراط المستقيم أعداء الأنبياء وخصوم الرسل صرعى الشبهات وعبّاد الوهم؟

حتى إنني رأيت بعض كتّاب صحفنا وهم شباب كتاكيت صاروا يفرون من ذكر الآية والحديث أو الاستشهاد برمز إسلامي أو الاقتراب من الديانة، فتجد أحدهم لغبائه وحمقه يتحدث عن رواية إسبانية وكاتب برازيلي وشاعرة فنزويلية وقصده الإغراب والتعالم والظهور بمظهر المثقف التنويري العصري، وهو لا يملك مقومات الكاتب فلا أسلوب جذّاب ولا مخزون معرفي ولا تميز علمي، فهو كالعنز الجرباء العجفاء لا لحم يسرّ، ولا لبن يدرّ، بل هم كما ورد في الحديث: (لحم جمل غثٍّ على رأس جبل وعر، لا سهل فيُرتقى، ولا سمين فينتقى) حتى بلغ من هزالهم وضحالة أفكارهم وسوء طويتهم أن هجروا القرآن، وأصبح عندهم القرآن كتاباً قديماً تراثيًّا للعامة من الناس وهم أهل رقي وتمدن، فعاقبهم الله بأن أذلّهم، فصاروا يقرؤون لحثالة البشر ويعجبون بخيالات وروايات أصنام وأزلام وأقزام ما سجدوا لله سجدة، وما سبّحوا لله تسبيحه وصاروا يذكرون الشريعة باستحياء، ويغمزون ويلمزون ويهمزون الديانة وأصحابها فهم يريدون الإسلام شعائر وطقوسًا تعبدية شخصية خاصة لا دخل لها في الحياة، فما جزاء من يفعل هذا

الفعل إلا المقت من الله والسقوط الشنيع في قاع الإهمال والإغفال، وسوف يكنسون من ذاكرة المجد كما كُنس عبدالله بن أبي بن سلول وابن سبأ وسوف يشطبون من ديوان الشرف وسجل الفضيلة جزاء عقوقهم لكتاب الله وهدي رسوله ﷺ وإني أنظر إلى كتابات رموز كبار مثقفي الإسلام في هذا العصر كإقبال والندوي وباكثير والرافعي والطنطاوي ومالك والزبيري وغيرهم ممن اعتز بالإسلام، وتشرف بالإيمان، فأجد الفخر يملأ جوانحي والحماسة تقدح في رأسي والشمم يملأ قلبي والرضى يعمر روحي، فنحن كما قال عمر بن الخطاب: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله.

آمل من كل مثقف يحترم نفسه أن يعتز بدينه، ويفخر بعقيدته، ولا يخجل من التمسك برسالته، وينظر إلى الكتّاب اليهود والشيوعيين والهندوس والبوذيين كيف يتبجحون بمبادئهم المنسوخة بالإسلام، وكيف ينافحون عن عقائدهم وهي على شفا جرف هار، قال عمر: أعوذ بالله من قوة الفاجر وضعف الثّقة، وفي الحديث: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**».

النقلة النوعية في حياة العرب

هي لحظة تاريخية مفصلية في حياة العرب، انتقلوا فيها بالتحديد من رعاة غنم إلى قادة أمم، من قبائل متناحرة وعصابات متقاتلة تقطع الطريق وتسفك الدم وتسلب القوافل وتنهب الأموال وتسجد للصنم وتأكل الميتة وتقطع الرحم إلى أمة واحدة موحدة لله تستقبل القبلة، تسجد للواحد القهار، تفتح الدنيا بالعدل، تقدّس القيم، تحترم الفضيلة، تبني صروح المعرفة، هذه اللحظة التاريخية هي لحظة نزول: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ، من عند الله على رسول الله ﷺ بواسطة روح القدس جبريل عليه السلام في غار حراء، في هذه اللحظة حصلت النقلة النوعية للعرب، فانتقلوا مباشرة من أعراب أجلاف قتلة متخلفين مشركين إلى جيل مؤمن مجاهد يحمل مشاعل النور للعالم وبشائر الرحمة للمعمورة، فينطلقون بلا إله إلا الله شهداء عليها وشهداء على الأمم، ويزكيهم ربهم بقوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾، فعزتنا وكرامتنا بدأت من غار حراء مع كلمة: ﴿ اقْرَأْ ﴾ في ذاك اللقاء التاريخي بين محمد ﷺ وجبريل عليه السلام ولم يحصل في العالم حدث مثله لا قبله ولا بعده.

ومن تلك الليلة بدأ يُكتب تاريخنا المشرق، والعرب لم يغيرهم حدث في تاريخهم الطويل مثلما غيرتهم ليلة نزول ﴿ اقْرَأْ ﴾ فلم تغيرهم أسواقهم الأدبية في عكاظ والمجنة والمجاز وغيرها من الأسواق ولم تغيرهم المعلقات السبع لكبار الشعراء، ولم تغيرهم الحروب التي وقعت في جاهليتهم كحرب ذي قار وحرب الفجار وأيام العرب الأخرى، وإنما تغيروا مباشرة بهذا الوحي المقدس المنزّل من عند الله على النبي الأمي ﷺ، من يصدق أن أعراباً بجزيرة العرب كانوا يسجدون للحجارة ويطوفون بالشجر، ويعتقدون بالكواكب ويعلقون التمائم، وفجأة وإذا هم

على ظهور السفن مكبرين مهللين يفتحون الأمصار والأقطار، من يصدق أن أناساً من الجهلة الوثنيين ينتقلون فجأة إلى خلفاء ببغداد ودمشق والقاهرة والحمراء والزهراء ويخرج منهم العالم المجتهد والخطيب المفوّه والطبيب الحاذق والمهندس الماهر والحكيم الملهم والعابد الصادق والداعية المجاهد؟

هل سيتم ذلك لو لم تحدث الرسالة المحمدية التي اهتز لها العالم، وارتجت لها المعمورة؟ هل تظنون لولا أن الله أكرمنا ببعثة سيد ولد آدم ﷺ سوف تقام الخلافة الراشدة ودولة بني أمية وبني العباس والأيوبيين والعثمانيين والمرابطين والموحدين، وغيرها من دول الإسلام والدعوات التجديدية كدعوة ابن تيمية ودعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب هل سيحصل ذلك من دون ﴿ اقْرَأْ ﴾ في ليلة الغار؟ وبسبب تلك اللحظة التاريخية ظهر عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد الفاتح، ومالك بن أنس وابن خلدون وابن سينا وبقية العلماء والحكماء والخلفاء والفقهاء والأطباء والمفكرين والفلاسفة، ولهذا يجب علينا أن نعود إلى مصدر شرفنا ونبع عزتنا نعود عودة صادقة؛ لنجدد ذاك التراث ونحيي في القلوب معالم تلك الرسالة.

وأقول بكل قناعة وشجاعة: ليس هناك حدث وقع في التاريخ غيّر في عالم المعتقد والسياسة والعلم والفكر والأدب والاقتصاد كحدث إرسال محمد بن عبدالله ﷺ للعالم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾، كل الأحداث التاريخية التي كان لها تغيير وتحرير كانت في جانب من الجوانب وفي حقل من الحقول، ثم إن غالبها أرضيّة بلا وحي من الله وهي محدودة التأثير بالزمان والمكان والبشر إلا رسالته ﷺ فإنها لكل زمان وفي كل مكان ولعامة البشر ولكل جانب من جوانب الحياة، ولهذا أنصف من جعله ﷺ الأول بين مصلحي ومحرري العالم كالكاتب الأمريكي مايكل هارث في كتابه (العظماء المئة) وغيره من الكتّاب، ومقصودي من هذا المقال دعوة الساسة العرب والعلماء والمفكرين والكتّاب والنوابغ إلى العودة الجادة الصادقة

لفهم الإسلام فهماً صحيحاً ودراسة الكتاب والسنة دراسة صادقة جادة يصحبها التصديق والعمل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

من بلادي يُطلب الحقُّ ولا
يُطلبُ الحقُّ من الغيرِ الغبي

وبها مهبطُ وحي الله بلْ
أرسل الله بها خيرَ نبي

قل: هو الرحمن آمنّا به
واتّبعنا هادياً من يثربِ

بالكتاب والقلم تسود الأمم

يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وهذا للكتاب، ويقول: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وهذا للقلم، فالكتاب والقلم هما سر عظمة الأمم ومفتاح مجدها وسلم رقيها ومصدر عزتها وباب فخرها وشرفها، وكل ما حصل في العالم من علم أو نصر أو فتح أو اكتشافات أو ريادة فبسبب الكتاب والقلم، وكل ما وقع في المعمورة من جهل وأميّة وهوان وتخلف وانحراف وهزيمة فبسبب إهمال الكتاب والقلم، وما نبغ عالم ولا تفوق مجتهد ولا ظهر حكيم ولا برع فيلسوف ولا تميز طبيب إلا من بوابة الكتاب والقلم، وفي عالم الدنيا إنما ساد الغرب في عالم الصناعات والاختراعات عن طريق الكتاب والقلم والتخلف عن ركب الحضارة المادية في الشرق سببه الأميّة القاتلة والجهل المركب بهجر الكتاب والقلم ورسالتنا المحمدية حيّت الكتاب ورحّبت بالقلم ومدحت العلماء وذمت الجهل وحذّرت من إهمال العلم والمعرفة.

متى نصحوا يا مسلمون، فنحارب الجهل والأميّة ونقوم بحركة علمية قوية في البيت والمدرسة والجامعة والمسجد والشاشة والصحيفة تدعو إلى العلم والتعلم مع وضع الجوائز للقراء وإلزام الجيل بالقراءة، عندنا إهمال كبير في التزود من المعرفة، عندنا نفور شديد من الكتاب، بيننا وبين القراءة قطيعة، نحن نحب الفنون واللهو والطرب والمظاهر الاستعراضية الجوفاء والأعمال الخدّاعة الزائفة لكننا نكره العكوف على الحرف وملازمة الكتاب ومدارسة المعرفة والتزود من الثقافة، أركب في الطائرة في بلاد العرب من مدينة إلى مدينة ومعي ما يقارب ثلاث مئة راكب، فلا أجد من فتح كتاباً أو أمسك قلماً إنما هذيان في الكلام وإسهاب في الحديث وقتل للوقت وضياع للزمن وإتلاف للذاكرة، أحضر المجلس فيه أكثر من مئتي إنسان عربي فلا آية محكمة تُفسّر ولا حديث شريف يُدرّس ولا مسألة علمية تُناقش ولا بيت شارد يكرر وإنما حديث هائج أشبه بحديث الأسواق

ولغط وضجيج كأنهم في مزاد، الكل يتحدث عما جرى ويجري وما سوف يجري من غلاء أسعار وحوادث مرورية وزواج وطلاق في سمر فارغ وسهر عابث يُختم بمفطحات وكبسات وقعدان تُوضع على صحون؛ لتزيدنا شحوماً بلا فهوم وأبداناً بلا أذهان فنتمدد في الأجسام ونضمر في الأفهام ونصرف القروش على الكروش ونبخل بالفلوس على الدروس نحب العرضة الشعبية وتثقل علينا التلاوة، ونعشق الدبكة ونكره القراءة، ونهيم بالرقص ونفرٌّ من المعرفة، فأصبحنا أمة مستهلكة آكلةً شاربةً راقصة وغيرنا أمم منتجة مخترعة مكتشفة وليتنا يوم أخطأنا خجلنا، ويوم أسأنا سكتنا، لكننا خرجنا بقصائد وأهازيج نفخر بها على البشرية ونمدح أنفسنا أمام الإنسانية، وننسب لأنفسنا مجد الأجداد الذي ما صنعناه، وشرف الآباء الذي ما بنيناه، هل نحن الذين شجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العدل والإنصاف؟ أم هل نحن الذين ألهمنا خالد بن الوليد الشجاعة والإقدام؟ أم هل ترانا درّسنا أبا حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل؟ وهل حضرنا «بدر» و«أحد» و«اليرموك» و«القادسية»؟ كلا وألف كلا، والقرآن يقول: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، والشاعر العربي يقول:

إذا فخرتَ بآباءٍ لهم شرفٌ
نعم صدقت ولكن بئس ما ولدوا

نحن استوردنا كل شيء، حتى تعليم القرآن الذي نزل بلغتنا العربية الفصحى، فقد استقدمنا الباكستاني والأفغاني يدرّس أبناءنا، فمدرّس القرآن ومدرس الإنجليزي ومعلم الكمبيوتر والمشرف على المشروع كلهم مستوردون، وأثاث المنزل كله مستورد من الثلاجة إلى سكين الفاكهة، أجل فلماذا نفخر على الناس؟ ونمدح أنفسنا في كل مناسبة، وليتنا اقتصدنا في الولائم، ورشّدنا العزائم، لننقذ أجسامنا من الكولسترول وعقولنا من الغباء وبطوننا من التخمة ونوفر للفقراء ونشبع المساكين، لكننا فتكنا بالخراف، وعصفنا بالتيوس، فهددنا

الـثروة الحيوانية، ثم قمنا بسهـرات طويلة من الرقص، فأتلفنـا البنية التحتية، وأكـثر مرضانا في أقسـام الباطنية، فنحن شهـداء الكبسة والمرقـوق والعصيدة والجريشـ، عسـى الله أن يتوب علينا وأن يعيدنا إلى رشدنـا ويدلّنا على الصواب في أمورنا، ويلهمنا السداد حتـى نفهم حجمنا، فنعي مسؤوليتنا، ونحترم أنفسنا، ونتواضع لإخواننا البشر.

فتح العقول أعظم من فتح المعاقل

تُركب بعض العقول من الصغر على مقاسات محددة مقولبة مثلما يقولب الأسمنت والطين في مربعات حديدية؛ ليخرج طوباً وبلوكاً جامداً، وهذه العقول تبقى على التقليد والجمود والجهل، فترفض الدليل، وتعارض الحجة، وتأبى الحق، يقول تعالى عن أهل هذه العقول: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾، ولهذا جاء الإسلام لفتح العقول قبل فتح المعاقل وإنارة البصائر قبل إنارة الديار، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾. فالنصر على الأعداء والفتح للبلدان والعقول والكنوز، وعظمة الإسلام في فتحه للعالم أنه لم يكن حركة استعمارية تريد الأرض وخيراتها فقط كما فعل الرومان والإنجليز والفرنسيون والأسبان وغيرهم من الأمم حينما توسعوا في الأرض وقهروا الشعوب، فإنهم استولوا على الثروات وهيمنوا على الخيرات ولكنهم لم يغيروا العقول والمعتقدات، فالشمال الإفريقي بقي مسلماً قبل الاستعمار وبعده، واليابان بقي على المذهب المانوي قبل احتلال الحلفاء وبعده، وبقية الدول المحتلة من قوة أجنبية أرضية لم تغير عقائد أهل تلك البلدان، فبقيت على البوذية والزرادشتية والمزدكية والمانوية والمجوسية وغيرها من الديانات الباطلة.

أما الإسلام فقد خالف هذه الطرق جميعها فإنه فتح العقول أولاً قبل فتح المدن وأولها مكة، فقبل أن يستولي الرسول ﷺ على مكة البلدة فتح عقول أهلها بالإيمان والعلم ثم سار أتباعه مشرقين ومغربين يفتحون العقول من السند إلى قرطبة ومن طاشقند إلى نهر النيجر، أول ما يدخلون مدينة أو قرية يغسلون عقول أهلها بلا إله إلا الله ويزرعون في قلوب شعوبها شجرة الإيمان والأمن والسلام والعدل ويطهرون أخلاق سكانها بالفضائل والنبل قبل ما يطهرون شوارعها، ولذلك يجب علينا قبل أن نتوسع في العمران أن نوسع عقولنا بالعلم والمعرفة وقبل أن نزرع حدائقنا بالأشجار أن نزرع في قلوبنا أشجار الإيمان والبر والرحمة، وقبل

أن نغسل طرقاتنا بالماء نغسل أخلاقنا من الدنس والرجس والمنكر، لا تسأل عن مساحة الدولة واتساعها، لكن اسأل عن مساحة أفكار سكانها وسعة عقول شعبها، ولا تغتر بناطحات السحاب في مدينة حتى تفتش في همم الناس الذين يسكنونها ومعارفهم وأخلاقهم، ولا تعجب بخضرة الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء في بلد حتى تتأكد من خضرة قلوب أهلها في الصلاح والمحبة والتراحم والإنصاف.

إن أكبر حركة دورية تحرُّرية تنويرية تجديدية وقعت في الكون هي حركة الإسلام ودعوة الرسول ﷺ بشهادة أساطين التاريخ، ولهذا اقتنعت كثير من الشعوب بدخول المسلمين إليها بلا حرب ولا قتال بعدما فُتحت عقول سكانها، فإندونيسيا وماليزيا وكثير من الدول الآسيوية والإفريقية لم تقع بينهم وبين المسلمين حرب زمن الفتوح؛ لأن قادة المسلمين فتحوا العقول بالإيمان والحكمة والدعوة الحسنة والسيرة الجميلة والأخلاق الفاضلة، فاعتنق الملايين الإسلام وبقي الإسلام إلى الآن في تلك البلدان يزداد قوة مع الزمن، لقد دخل التتار نصف الكرة الأرضية واجتاحوا العالم الإسلامي، ولكنهم لم يقنعوا فرداً واحداً بمذهبهم الرخيص ولم يفتحوا عقلاً واحداً بمنهجهم الباطل، ولقد اجتاحت العالم الإسلامي جيوش جرارة من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين والهولنديين وغيرهم وبقوا سنوات فما كسبوا عقلاً واحداً، وقد كسبوا ثروات البلاد التي احتلوها ولكن المسلمين دخلوا إسبانيا فتحول الشعب إلى الإسلام وبقوا عليه مئات السنين، وأكرر هنا قول الرئيس الأمريكي نيكسون: أمريكا قوية لكن مع الأسف الأفكار العظيمة في الإسلام، وأقول: بإمكان أمريكا بسلاحها وعتادها وبارجاتها وصواريخها وقوتها النووية الهائلة أن تحتل العالم العربي، ولكنها لن تحتل العقول؛ لأن الإسلام سبقها فاتحاً لتلك العقول قبل البلدان، بل أقول: نحن الآن نؤذن ونصلي بجانب البيت الأبيض بواشنطن والإليزيه في باريس ومجلس العموم بلندن والكرملن في موسكو؛ لأن فكرة الإسلام ليست في صاروخ أو دبابة أو قنبلة فهذه الآلات فتحها وقتي وطارئ ولكن فتح الحجة والبرهان والدليل والإقلاع ثابت راسخ

ولهذا يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾، فالحكمة للعلمـاء والرواد والموعظة للعوام والجماهير والجدل بالحسنى لأهل الشبهات والشكوك.

لن يغيرنا الله حتى نتغير أولاً

النفس البشرية هي مصدر القبول والرفض لأي تغيير نحو الأفضل أو الأسوأ، وبحسب استعدادها للعلو والهبوط يمنحها الله ما تهيأت هي له، وعندما نزل الوحي استقبلته القلوب الصادقة، فزادها إيماناً ورفضته القلوب المكذبة، فزادها كفراً، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ﴾، والشعوب التي تريد المجد لا يحجبها أحد عن مجدها وسوف تناله بجدارة؛ لأنها تستحق ذلك، وانظر إلى المؤمنين في بدر كانوا ثلاث مئة وأربعة عشر رجلاً لكنهم كانوا بذرة طيبة لأمة عظيمة طوقت انتصاراتها وفتوحاتها الدنيا والأمة التي استسلمت للهوان ورضيت بالذل لا يرتفع لها شأن أبداً، فبنو إسرائيل انتصر عليهم فرعون واستعبدهم وأذلّهم؛ لأن عندهم قابلية لذلك، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

ولهذا لما هاجر بهم موسى إلى الأرض المقدسة لم يكونوا أهلاً للنصر والمجد لأنهم يحملون نفوس الخنوع والقهر فأبقاهم الله في صحراء سيناء يتيهون أربعين سنة حتى مات هذا الجيل الفاشل الذليل الحقير ونشأ جيل آخر عنده صمود وتحد فدخل الأرض المقدسة، وما تقوم دولة من الدول ولا ثورة من الثورات إلا على أيدي أبطال عندهم استعداد للتضحية والفداء، كما قال أبو مسلم الخرساني: كل قادة دولة في أول أمرهم شجعان، ولا تسقط دولة إلا على أيدي كسالى فاشلين عندهم استعداد للسقوط، فدولة بني أمية سقطت على أيدي أناس مستهترين وأوغاد لعّابين؛ كالوليد بن يزيد الذي احتجب عن الرعية وكان جُل وقته سكران يعيش حياة البذخ والإسراف حتى قتل على يد ابن عمه وأُحرق في جلد حمار.

ودولة بني العباس سقطت في جيل فوضوي همه اللهو واللعب، حتى إن الخليفة المستعصم من آخر خلفائهم كان مشتغلاً بنطاح الكباش واللعب بالنردشير، والذين صنعوا الحضارات كانوا أهلاً لهذا التمدن الدنيوي والرقي الحضاري فهل اليابانيون وصلوا إلى ما وصلوا إليه من إنتاج وصناعة وتمدن بالنظر في النجوم وتعليق التمائم واستشارة المشعوذين والكهنة؟ أم بالنزول إلى الميدان وفتح الآفاق للمهارات وتسخير المواهب في سبيل النهوض والتمدن وترك الكسل والمظاهر الخدّاعة والمشاهد الزائفة من اللهو والطرب، وهل ماليزيا بقيادة مهاتير محمد جلست على النجوم في العالم الإسلامي في رقيّها وحضارتها ونظامها واقتصادها؛ لأنها جلست تتغنى بمجد أجدادها وتاريخ أسلافها أم لأن مهاتير محمد وضع لها خطة عملية ميدانية تسمى الخطة العشرية، وهي مكتوبة موجودة لمن أراد أن يطلع عليها تقوم على احترام القداسات وإطلاق الحريات وإحياء المؤسسات وفتح سوق العمل والانتقال من التنظير إلى الميدان وفك الارتباط الاقتصادي الذي يقوم على التبعية لهيمنة الرأسمالية.

وهل طيب أردوغان في تركيا أجلس تركيا على الجوزاء في عالم الازدهار والتقدم؛ لأنه قعد يقص عليهم أخبار أجداده من عثمان الأول وسليمان القانوني ومحمد الفاتح وأمثالهم؟ أم لأن الرجل وأعضاء إدارته شدوا أحزمتهم في عمل رهيب يقوم على روح التنافس والتجديد والإبداع، ووضعوا خططاً للتعليم والسياسة والاقتصاد والسياحة وغيرها وكلفوا طواقم من الجهابذة مهمتهم تنفيذ هذه الخطط كلٌّ فيما يخصه، حتى إن تركيا هذا العام أخذت المركز العالمي الأول في السياحة تنظيماً وترتيباً وإمتاعاً وهي ليست بلد بترول ولا غاز، ولا يُحتل وطن ولا تُذّل أمة إلا وعند أهلها استعداد وقابلية لذلك، فالعالم الإسلامي في عصر الانحطاط قَبِل الاستعمار المغولي ولكنه في عهد النهوض والصمود بقيادة نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي رفض الاحتلال الصليبي وفتح بيت المقدس، والذين لا يفخرون بالمجد الدنيوي والازدهار المعيشي ليس عندهم استعداد

لهـذه المراتـب المتقدمة لأن من يفكـر في التوافه ويعيش الأوهـام ويتسلى بالماضي لا يصلـح أن يصنع مجداً أو يقيم حضـارة أو يترك إبداعاً ومآثر حية، وإنني أقرأ سـيرة الرموز المعاصرة الذين أثروا في القرن الماضـي، وساهموا في صنع التاريخ وهـم قرابة العشرين رمزًا وقد جمعهـم الأستاذ تركي الحمد في كتاب (العشرون الأوائل) وسمَّى منهم الملك عبدالعزيز وغاندي وروزفلت وتشرشل ولينين وستالين وماوتسـي تونج والخميني ونيلسون مانديلا ومحمد علي جناح وبقية العشرين وقد أصـاب في ذلك، ويجمـع هؤلاء العشريـن قاسم مشترك وهو الصمـود والتحدي والصـبر والعمل والإصـرار بغض النظر عن معتقداتهـم ومذاهبهم وإنما المسألة سنة الوجود وقانون الحياة الدنيوية، لأن من جد وجد ومن زرع حصد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾.